سُنَن التَّغيير

الإنسان

حين يكون كَلًّا وحين يكون عدلًا

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُما أبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أينَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَل يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[النّحل ١٦/٧٦]



دارُ الفِكرِ المُعاصِر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الانسان

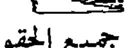
حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً

تصوير ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م

الكتاب ٨٩٣

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م

ط ١ = ١٩٦٩ م



لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧

ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق

الْحَمْدُ للهِ

وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينْ اصْطَفَى

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا

إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ

قـال بعض السّلف : إذا سمعت المثـل في القرآن فلم أفهمـه بكيت على نفسي لأن الله تعـالى يقـول :
﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ ﴾
[العنكبوت ٢٩/٤٣]

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلِّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلالهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا ..

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الأحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابن آدم الأول) ، وأن ننوّه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عن أداء الأمانة ؛ في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ؛ ﴿ ومَنْ أحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنَّني مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصّلت ٤١/٣٣] ، ﴿ وَمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة ٢/١٤٠] .

المحتوى

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

منذ أن بدأت أُفكر في مشكلة تخلّف المسلمين ، رأيت أن هذا الموضوع يستحقّ أن يخصّص المرء نفسه له ، كان يصاحب تفكيري هذا أهمية دور المرأة في هذه المشكلة . ولتحقيق هذا الدور كنت أولي باهتمامي أخواتي كي يشارِكْنَ في هذا فِكْراً وعملاً ، ورأيتُ أنّ محاولاتي تعطي نتائج جيدة ، وكنتُ أشعر أن المحصول الذي يرجع إليّ من الجهد الذي أبذله أوفى مما كنت أتوقعه في مجالات شتى ، مما دعم ما كنت أفكر فيه أولاً . فكان مما يثبتني في السير على هذا الطريق التفهُّم الذي كنت أجده منهن ، والحرص الذي بذلنه في تحقيق الفكر والعمل ، مما يجعلني أزداد صلة بالأفكار نفسها التي نبحثها معاً ، وكنّ يحرِصْنَ على تسجيل الآراء التي كنّا نتعرض لها أثناء البحث مما لم أكن أتوقع لها ما يتوقعن ويأملن .

واليوم أتقبل ما تقدمه أختي إليّ من هذه الأبحاث التي رأينا فيها الفائدة ، وأوافق على نشرها باسمي .

دمشق ١٣٨٨/١٢/٢٤ هـ

ـ واليوم أيضاً أوافق على إعادة طباعة هذه الأبحاث بناء على رغبة بعض الإخوة . والله من وراء القصد وهو يهدي سواء السبيل .

دمشق ١٣٩٨/٣/٣ هـ **جودت سعيد**

مدخل

في هـذا العصر برزت مشكلـة توجيـه الإنسـان ، واحتلّت مكان الصدارة بين الأمور التي يمتاز بها ، فإن كانوا يسمّون هـذا العصر عصر البخار والكهرباء ، والذرة والفضاء ، فإن ما تنبَّـه إليـه هـذا العصر من سنن توجيـه البشر أهم من كل مـا سبق ، ولا قيمـة لمـا سبق إنْ لم ينجح الإنسان في التوجيه الصحيح للإنسان . والذي جعل ابن خلـدون يحتل مكان الصدارة بين العلماء العالميين هو تنبهـه إلى السُّنن ـ القوانين ـ التي تجعـل البشر يرتفعـون في مستـوى العمران (الحضـارات والنهضـة) أو ينخفضون .

والهدف الذي نرمي إليه من هذا البحث هو أن يتبين للقـارئ : أنَّ البشر يمكنهم بـاستخـدام السُّنن المتعلقـة بتغيير النفس من دفـع أو خفض مستـوى الأفراد والمجتمعـات حسب الهـدف الـذي يرمي إليـه الإنسان الذي يقوم بهذه المهمة .

والصفة التي تمكّن الإنسان من أداء واجبه ليصل إلى الهدف الـذي يرمي إليه ، يطلق عليهـا في مصطلحـات العصر الحـاضر حين يبحثون

هذا الموضوع : (الفعالية ، والنمّو ، والمقدرة التـأثيريّـة) ، كما يطلقون على العجز الذي يصاب به الإنسـان مصطلح : (الـلافعـاليـة ، أو السلبيـة ، أو التخلُّف) وهـذا الموضوع جـدير بـالاهتمام ، وقـد عبّر عنه القرآن في مَثَلِ الرجلَيْن الذي ضربه الله فقال : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ : أحَدُهُما أَبْكَمُ لاَ يَقْـدِرُ علَى شيءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ، أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيرٍ ؛ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَـأْمُرُ بِـالعَـدْلِ ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النّحل ٧٦/١٦] .

فإذا فهمنا معنى الفعالية واللافعالية فبإمكاننا أن نفهم أن الكلمـة التي وردت في الآية وهي كلمة (الكَلّ) هي الكلمـة القرآنيـة المقـابلـة لمصطلح اللافعالية والسلبية ، بل كلمة القرآن أدلُّ على هذا المعنى حيث إن كلمة (الكَلّ) لا تدل على اللافعالية فحسب بل تدل على أنـه عبء على من يتولاه سـواء كان فرداً أو مجتمعـاً . كما وإن كلمـة (العَـدْل) في القرآن تقابل مصطلح الفعاليّة بشكل أدق ، لأن الفعالية لا تشترط دائماً أن تكون فيما ينفع ، بل قد يكون المرء فعالاً فيما يضر . أما كلمة العدل ففعـاليتـه في الحـق دائمـاً ، كما وإن أمره بـالعـدل ذاتي الانبعـاث وليس مدفوعاً إليه .

والآية تدل بشكل دقيق وواضح على الفعاليّة واللافعالية في مَثَلِ الرجلين الـذي ضربـه الله : مثلِ الرجل الأبكم الـذي لا يقـدر على شيء

وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . إنَّه وصف دقيق للافعاليَّة في عدم القدرة على شيء وفي عيشه عالة على الآخرين . كما تدل على أنّ عجزه عام وليس في جانب واحد لأنه أينما يوجِّه لا يأتِ بخير . وإذا لاحظنا أن الفعاليَّة واللافعاليَّة تظهران في جوانب الحياة كلها وتَعُمّان كل أجزائها ، فإن من الخطأ محاولة علاج مسألة جزئية من نتائج اللافعالية دون معرفة شروط الفعالية ، التي سيوفِّر تحصيلُها خيراً كثيراً ، ويختصر لنا الطريق . ومن هنا تبرز أهمية شروط الفعالية ، وسنحاول ذكر ذلك فيما سيأتي :

ولنفهم معنى الآية بشكل أوضح نقول : معنى (الْمَثَل) في حقيقته أن يذكر شيئاً يمكن للإنسان أن يدركه بسهولة ليصل بواسطة ذلك المثل إلى شيء آخر أدق وأعمق يحتاج إلى انتباه .

وإذا نظرنا إلى هذه الآية على ضوء ما يُساق الْمَثَلُ من أجله ، نسأل ما الشيء الذي يريد الله أن نفهمه بواسطة هذا الْمَثَل ؟ إنه ينبغي أن ننظر أولاً إلى مضمون المثل الذي يضربه الله بوضوح وبساطة . فبعد الفهم السهل الواضح ، ننتقل إلى القسم الآخر الذي من أجله ضرب الله المثل .

ومعنى الْمَثَل بوضوح وبساطة ؛ هو عدم المساواة بين شخصين ،

شخصٍ عاجز (كَلٌّ) لا يصلح أن يكلَّف بأداء أي مهمة ، وشخصٍ آخر نشيطٍ فعّالٍ (آمرٍ بالعدلِ) إذا توجَّه إلى أمر تشعر أنه يؤديه على وجهه ويحصل على أحسن النتائج . ونفي المساواة بين هذين الشخصين من أوضح البدهيّات ومما لا يخفى على أحد .

لكن الهدف من هذا المثل هو التنبه إلى السبب الذي يجعل هذين الشخصين بهذا الفارق البيّن في قيمة كلٍّ منهما . لأن التنبُّه إلى السبب هو المفتاح الأول لتوجيه جهد الإنسان في تحويل الشخص من أن يكون كَلاًّ إلى أن يكون آمِراً بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وجعله في ﴿ أحسنِ تقويمٍ ﴾ [التين ٩٥/٤] بدل أن يصير إلى ﴿ أسفل سافلين ﴾ [التين ٩٥/٥] . والذي يهدف إليه القرآن هو بيان الحالة التي يصير إليها الإنسان إذا رُبّي واصطُنِع على أساس المنهج القرآني ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمشِي سَوِيّاً على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك ٦٧/٢٢] .

الفصل الأول

الفعاليّة

للاقتراب من معنى الفعالية أكثر، يمكن أن نعرّفها : بقدرة الإنسان على استعمال وسائله الأولية ، واستخراج أقصى ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج . وهذا هو معنى الفعالية ؛ وبعكس ذلك فإن اللافعالية هي : أن يكون الإنسان عاجزاً عن استخراج النتائج التي يمكن أن يحصّلها من الوسائل المتاحة له فهذا هو الكَلّ .

ولزيادة الإيضاح يمكن أن نضرب للفعالية أمثلة في مستويات مختلفة : مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والعالم .

١ - بيان الفعالية في مستوى الفرد

مما يمكن أن يقع تحت ملاحظة كل أحد ، أن الأفراد يتفاوتون في مقدار فعاليتهم أي في الاستفادة من الوسائل المتاحة لهم . فقد نرى فرداً ، مع أن وسائله وإمكاناته مثل فرد آخر ، إلا أن أحدهما نجده متفوقاً في الاستفادة من الوسائل المتاحة له : سواء في الاستفادة من

وقته ، أو ماله بل حتى من قلمه الذي يكتب به ، ومن حذائه الذي ينتعله ، ومن الحقيبة التي يحملها ، سواء كان ذلك في اختيار النموذج الجيد الجميل أو في طريقة الاستعمال والصيانة ، وما إلى ذلك من جوانب متعددة يمكن أن نرى فيها أقل قدر ممكن من التبديد[1] وأكثر قدر من النتائج . والميزة بين الفعال واللافعال : هو ما بين الشخصين من فرق التبديد ، أو التحصيل للنتائج الجيدة سواء منها المادية أو المعنوية .

والفعالية وعدم الفعالية كما جاء في الآية الكريمة تَعُمُّ كلَّ أجزاء الحياة بحيث يصير الإنسان في حالة ﴿ أينَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ [النّحل ٧٦/١٦] . كما يصير في حالة أخرى أينما تَوجَّه يأت بخير ويأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم . فإذا كانت الفعالية ـ الأمر بالعدل ـ تَعُمُّ جميع مظاهر الحياة فهي تظهر في ساعة من الوقت يقضيها الإنسان ، وفي كمية من المال يستخدمها ، وفي آية من القرآن يتعلّمها ، وفي قطعة من الأرض يستثمرها ... إلخ .

فالساعة من الوقت بالنسبة للإنسان الفعال لها قيمتها حتى إن الساعة التي يظن أنّه لا يمكن استخدامها في شيء ، فإن الإنسان الفعال

(١) الضياع دون فائدة .

يستخدمها في شيء نافع . فالزمن زمن بالنسبة لكل إنسان . ولكن بالنسبة للإنسان الفعال زمن تتولد فيه حقيقة من حقائق الحياة ، ولحظات تنبض بالحيوية ، لا لحظات خامدة ميتة ، لهذا مما يَشُقُّ على الإنسان أن يُسأل يوم القيامة « عَن عُمره فيم أفْناهُ ؟ » .

وهكذا شأن الإنسان الفعال في المال ، فكمية من النقد في يد الإنسان الفعال يمكن أن تقضي حاجات أساسية وتعطي أثراً . بينما يظل النقد في يد الكَلّ كَمّاً مهملاً لا يقضي حاجة ، ولا يعطي ثمرة ، فالنقود في يده إما خامدة ساكنة وإما بائرة خاسرة . ومن هنا نعلم أن المال ليس المصدر لفعالية الإنسان ، ولكن الإنسان الفعال هو الذي يجعل المال فعالاً . ومن الخطأ أن نفهم القضية على غير ذلك فنكون بذلك سترنا مرض التخلّف الذي عند الإنسان بستار الفقر ، بينما المشكلة مشكلة (تخلف الإنسان) سواء كان غنياً أو فقيراً ، وليست مشكلة غنى أو فقر ، ولهذا علّق رسول الله ﷺ فعّالية المال بفعالية الرجل حيث قال : « نِعْمَ المالُ الصّالحُ للمرء الصّالح »[1] .

والآية من القرآن مع الإنسان الذي يأمر بالعدل (الفعّال) تتحول إلى حقيقة حيّة متحرّكة تنبض بالحياة والحيوية ، وتتحول إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ، وهو حديث صحيح .

سلوك مرئي يوحي إلى الآخرين بالسلوك الحيّ . والإنسان الفعّال يضع الآية في مكانها المناسب فكأنها تنزل الآن . بينما الإنسان الكَلّ ، ترى الآية القرآنية في فمه لا صلة لها بحياته العملية ، كما تجده يضعها في غير مواضعها ..

والإنسان الكَلّ (اللافعال) يطبع صورته على الأرض التي يعيش عليها ، فتستطيع أن تعرف من خلال رؤيتك لقطعة الأرض التي يمتلكها إنسان ما ، فعّالية ذلك الإنسان أو عدم فعّاليته ، حيث تكون أرض الإنسان الفعّال عليها نضارة الحياة بخضرتها وتنسيقها وترتيبها ، كما يمكنْ أن ترى أرضَ الإنسان الكَلّ أرضاً مَواتاً لا تنبض بحياة ولا تشاهد فيها نظاماً ، كما لا يُحصّل منها ثمراً . فالفعالية إلى أي مكان توجّهت تأتي بالخير ، وإذا دخلت الفعالية في الإنسان فلا تدع شيئاً مما يتصل به إلا وتسري فيه .

٢ ـ بيان الفعّالية في مستوى الأسرة

وكما لاحظنا الفعالية في الفرد كذلك يمكن ملاحظتها في مستوى الأسرة : كأن تكون أسرتان وسائلهما متساوية في الدخل وفي عدد الأشخاص . وقد تكونان في الحيّ نفسه ، والعمل نفسه .. إلخ ، ومع ذلك تتفاوتان جداً في حياتها الداخلية ، ونظام اقتصادهما ، والنواحي

التي تعطيان لها الأولوية في إنفاقها . فقد تجد عند إحداهما حُسْنَ الترتيب في مسكنها وجودَة الغذاء في مأكلها ، وحُسْنَ العشرة في معاملتها مع من تختلط بهم ؛ بينما تجد الأخرى عكس ذلك ؛ مع ملاحظة إمكان اختلاف المستويات بالنسبة لمجتمعَيْن مختلفَيْن كأن يكون الفعال في مجتمع ما مساوياً لما يعتبر كَلاًّ في مجتمع آخر ..

وفعالية الأسرة وأمرها بالعدل ، يظهر في سلوك أطفال الأسرة وأسلوب حياتهم في ملابسهم ، وأُسلوب حديثهم ، ولطف معشرهم ، وحسن خلطتهم واعتدالهم في مشيهم . وإنّ وصايا لقمان لابنه تتحول إلى حقيقة واقعة في الأسرة الفعالة (الآمرة بالعدل) لأن هناك من أساليب العطاء أسلوباً يوحي للطفل بتمثُّل السلوك والحرص عليه . فتبذل الأسرة كل جهد في تحقيق وصايا لقمان :

﴿ يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَٱنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الأُمُورِ . وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأصواتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان ٣١/١٧-١٩] .

فإن تحويل الطفل إلى ممثِّل لهذه الحقائق يحتاج إلى بذل جهود

لا تُحصى ، وهنا يختلف طبعاً عن تعليمه ألفاظ هذه الآيات . إذ كل جهد من الأب والأم والإخوة والجيران ، يسهم إما في جعل هذه الأمور حقائق حيّة في أعماق الطفل أو ترك أعماقه خاوية من كل معنى .

٣ ـ بيان الفعالية في مستوى المجتمع

وإذا كنّا نلاحظ فرقاً في ارتفاع درجة الفعالية وانخفاضها في مستوى الأفراد ، ومستوى الأسر ، بالنسبة لمجتمع واحد ، فإن إمكانية ملاحظة ذلك الفرق في مستوى المجتمعات ، في فعالية مجتمع ما بالنسبة إلى فعالية مجتمع آخر أشد وضوحاً . ولقد صار العالم الآن منقسماً إلى مجتمَعْين : المجتمعات الفعّالة وتسمى المجتمعات المتقدّمة ، والمجتمعات غير الفعالة وتسمى المجتمعات المتخلّفة مع تفاوت في درجة تقدُّمها أو تخلُّفها .

وإنْ كنّا بيّنا معنى فعالية الفرد ، فإننا سنضيف هنا الشيء الذي يُطْلَق عليه (فعالية المجتمع) في المصطلح المتداول عند الباحثين : وهو المجتمع الذي نظّم نفسه وتمكّن من القضاء على المشاكل الأساسيّة فلا يتعرض للمجاعة ، ولا لاجتياح الأوبئة ، ولا لبقاء أُميّين بين أفراده ، كما لا يتعرض للاستعمار ، ولا لعمليات انقراض بالجملة بفعل القنابل الذرية ، ولا لتقسيم الناس إلى مستكبِرين ومُستَضعَفين .

وفعالية الفرد والمجتمع لها أهميتها الخاصة واعتبارها وقيمتها ، كما يمكن أن ننظر إلى الفعالية منفصلة ـ ولو باعتبارٍ ما ـ عن الإيمان . وهذا الفهم يمكن أن نلاحظه في حديث الرسول ﷺ لما سُئل عن أكرم الناس فبيَّن في جوابه أن « النَّاس معادن ، خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا »[1] . فهذا الحديث يشير إلى نوع من الخياريَّة يستمر امتداده من الجاهلية إلى الإسلام . وهذا واضح في شخصية عمر وخالد حيث كان كلٌّ منهما فعّالاً في الجاهلية فازداد فعالية في الإسلام ، وهذا الأمر وإنْ كان ظاهراً في موضوع الفرد ، إلا أنه يمكن ملاحظة ذلك بالنسبة إلى المجتمع أيضاً . كأنْ يكون مجتمع خيراً من مجتمع ، لا بالفطرة والاستعداد ، ولكنْ بالتَّربية والصفات المكتسبة . ويمكن أن نفهم قوله تعالى : ﴿ ... اللّهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴾ [الأنعام ١٢٤/٦] ، على هذا الأساس ؛ سواء بالنسبة للفرد الذي نزلَ عليه الكتاب ، أو المجتمع الذي نزل فيه ، دون ردِّ هذا الشيء إلى أصالة في الجنس ؛ وإنما إلى خياريَّة حدثت ضمن شروط تاريخيَّة وظروف معينة . وفي الآية ردٌّ على اعتراضَيْن : اعتراض القرشيين في اختيار الفرد حيث قالوا : ﴿ لَولا نُزِّلَ هَذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ

---

(١) البخاري ـ كتاب المناقب ـ الحديث الخامس .

الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزُّخرف ٣١/٤٣] . واعتراض اليهود في اختيار المجتمع حيث لم يكن منهم .

ثم إن فعالية المجتمع ليست شيئاً ثابتاً . وإنما هي أمر معرَّض للتقلُّبات والتغيُّرات فقد يتحول مجتمع متخلِّف إلى مجتمع فعَّال ، كما يحصل العكس ، كما حدث ذلك في المجتمع الجاهلي حين تحوَّل إلى مجتمع إسلامي فعَّال (يأمر بالعدل) ، ثم كيف تحوَّل هذا المجتمع الإسلامي الفعَّال إلى مجتمع متخلِّف كئيب (كَلٌّ) . وهذا التحوُّل من الفعالية إلى العجز بالنسبة لمجتمع واحد في مرحلتَيْن من مراحل تاريخه ، أو بالنسبة لمجتمعَيْن في مرحلة واحدة : هو الذي كان موضع عناية الرسول ﷺ كما هو واضح في جملة أحاديث من تخوّفه على الأمة من مثل هذا التحوُّل ، إلا أن ذلك لم يكن واضحاً للكثيرين من الصحابة كما يتبيَّن ذلك من موقفهم من تلك الأحاديث .

ومن الأحاديث التي يبرز فيها هذا المعنى بوضوح وهو تحوُّل المجتمع من فعّال إلى عاجز : (حديث القصْعة) حين قال الرسول ﷺ منبئاً عن تحول المجتمع : « يُوشِكُ الأُممُ أن تَداعى عليكُم كَما تَداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها » . فتعجَّب الصحابة من هذا القول ، ولم يمكنهم أن يفهموا كيف يمكن أن يحدث ذلك . إذ من عادة الإنسان غالباً أن يتصوَّر استمرار الحالة التي هو فيها ونسيان الحالة الماضية ، وهذه

الطبيعة الإنسانية متفاوتة الدرجات عند الناس . ومما يدخل في هذا الموضوع ما يذكره الله تعالى من نسيان الإنسان ﴿ وَإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنيباً إلَيْه ، ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعو إلَيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزُمر ٣٩/٨] . وتفاوتُ الناس في هذا كتفاوتهم في الإيمان ، إلا أن هذا الجانب الاجتماعي والتاريخي الذي يتحول ببطء سواء في تكونه ، أو في زواله ليس من السهل أن يتنبّه إليه كل أحد ، وهذا ما كان يجعل رسول الله يُنَبِّه إلى تحوُّل الحال في الأجيال المتتابعة ، وعلى هذا قوله : « خير القرون قَرْني ثم الذين يلونهم .. »[1] . فهذا الحديث يشير إلى جزء من مرحلة . وهو كيفية التحوُّل من الفعالية إلى العجز على مرِّ القرون ولكن هذا جانب من عملية دورة المجتمع لا يفهم منه قط أن يستمر هذا الانحدار كما جاء في الحديث الآخر حين سُئل ﷺ أوَلَيسَ بعدَ ذاكَ الشَّرِّ مِنْ خير ؟ فقال : « نعم .. » وهذا دليل خضوع التحول للسُّنن ولتدخل جهد البشر في تعجيله أو منعه سلباً وإيجاباً .

نرجع إلى حديث القصعة حيث تعجَّب الصَّحابة من قول الرسول ﷺ ولم يمكنهم أنْ يفهموا الموضوع إلا من جانب معيَّن أشاروا إليه بوضوح حين قال قائل : « أوَمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذٍ يارسول الله ؟ »

(١) البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب فضائل الصحابة .

فهنا نفى رسول الله ﷺ السبب الذي فسروا به العجز الذي يصيب المسلمين ، حيث فسَّره الصحابة بقلَّة العدد ، فنفى لهم رسول الله ذلك ، وقال : « بَلْ أنتم يومئذٍ كثير » فنفى قلة العدد التي فسَّر بها الصحابة الوضع ، وأثبت جانباً آخر وهو جانب نوعية الإنسان وحالته في الفعالية حين نسب العجز إلى الغثائيَّة فقال : « ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيل » ، وزاد في شرح ذلك حين نسب هذا الوهن إلى القلب وساقه إلى منبعه الأساسي وعلَّته الأولى ، وهو النظر الخاطئ الذي يجعل الإنسان يستكين إلى الدنيا ويطمئنّ إليها دون تمييز بين حياة الذّل وحياة الكرامة « وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكُم وَلَيَقْذِفَنَّ في قُلوبِكُم الوَهْنَ . فقال قائل : يا رسول الله وما الوَهْن ؟ قال : حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ »[1] . فهذه النظرة الشَّائكة تزيّن الحياة ، أيَّ حياة كانت كما قال الله عن قوم استكانوا إلى الدُّنيا : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة ٩٦/٢] .

والخلاصة : حين يفقد الإنسان شيئاً يستحقّ أن يبذل نفسه من أجله فقَدْ فَقَدَ أساس الفعالية وغرِق في أساس الكَلالة والوَهْن ، سواء كان هذا الذي يبذل نفسه من أجله حقيقة يستحق ذلك أو لا يستحق ، إذ المهم أن تحدث لديه القناعة في أنه يستحق .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم رقم ٤١٢٩

ومما يتصل بهذا الموضوع حديث زياد بن لبيد ، قال : « ذكر النَّبي ﷺ شيئاً فقال : وذاك عندَ ذهابِ العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ؟ ونحن قرأنا القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئون أبناهم فقال : ثَكِلَتْك أُمُّكَ يا بنَ لبيدٍ إنْ كنتُ لأراكَ من أفقهِ رجلٍ بالمدينة أوَلَيْسَ هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟ »[1] .

فأصل موضوع هذا الحديث هو التنبيه إلى تحوُّل المجتمع إلى حالة من العجز والوهن والكلالة بحيث لا يعود يستفيد من الوسائل التي بين يديه في تحصيل أحسن النتائج منها ، فهذا الوضع هو الذي يشير إليه الرسول ﷺ ، ولكن مرة أخرى لم يفطن بعض الصحابة إلى فهم الموضوع الذي أشار إليه الرسول ﷺ ، بل اعترضوا عليه ، واستبعدوا أن يحدث الشيء الذي قاله ، وعلى ضوء مفهومهم أتَوْا بالدليل الذي ينقض في نظرهم الحالة التي أشار إليها الرسول ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله كيف يذهب العلم ؟ وفسَّروا عدم ذهاب العلم بأنهم سيعلّمون أبناءهم القرآن ، وأبناؤهم يعلّمون أبناءهم ، وهكذا . ولكن الرسول ﷺ أراد أن يضرب لهم مثلاً واقعياً معاصراً لهم ، واقعاً تحت أبصارهم ، وأسماعهم ، وهم أهل الكتاب الذين بأيديهم التوراة

(١) أخرجه الإمام أحمد ـ وصححه ابن كثير في تفسير المائدة ٦٣

والإنجيل ، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء . فالرسول ﷺ يشير إلى حالة يعجز فيها الإنسان عن الاستفادة والانتفاع من الشيء الذي بين يديه ، وهو ناتج عن الحالة النفسية والفكرية التي يعيش عليها الكَلّ الذي (أينَما توجِّهه لا يأتِ بخيرٍ) ، لا لأنَّ الخير غير موجود ، ولكن لأن وضعه هو الذي يعجزه أن يأتي بأيٍّ خير .

والرسول ﷺ حين يتحدث بحديث القصعة ، وحين يتحدث بحديث ذهاب العلم ، وحين يتحدث بحلول الفتن ، لا يخبرنا بأن هذا الشيء ضربة لازِبٍ لا محيص منه مطلقاً ، وإنما يتحدث بها رسول الله بوصفها نتائج لأسباب نفسية وفكرية يهيء المجتمع لها نفسه شيئاً فشيئاً فتنزل عليه النتائج ثقيلة الوطأة شديدة العبء . ونحن حين نقرأ مثل هذه الأحاديث نعجز عن وصلها بحقائق إسلامية كبيرة ، وهي أنَّ هذه الأوضاع التي يشير إليها الرسول ﷺ نتائج لأسباب في مقدور البشر أن يؤثِّروا فيها ، وأن يغيِّروا من اتجاهها إذا هم بذلوا جهداً في التأمُّل فيها ، وكانوا على بصيرة في سبيلهم التي هم عليها .

فرؤية هذه الأحاديث منفصلة عن هذه الحقيقة الإسلامية الكبرى المودعة في قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِم ﴾ [الرّعد ١١/١٣] ، تجعل الإنسان يعتقد أن صيرورة الأمة إلى تلك الحالة أمر محتَّم لا يمكن تفاديه . وهذا خطأ ، لأن وقوع ما أخبر

به الرسول ﷺ وعدم وقوعه مرتبط بالشروط التي يمكن للإنسان أن يتجنب الوقوع فيها . وهنا هو مغزى قصص الأمم السابقة في القرآن لأن الإخبار بحدث لا يمكن الاستفادة منه في تجنّب الشّر ، إلغاءٌ للعبرة من أخبار السابقين . وإمكان تفادي الوقوع هو ما تدلُّ عليه آية ﴿ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الرّعد ١٣/١١] ، كما هو أيضاً الحقيقة المتضمنة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ... ﴾ [يوسف ١٢/١٠٨] ، والموجودة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ ﴾ [النّحل ١٦/٣٣] إلى آخر ما هنالك من الآيات والأحاديث التي تبيِّن ارتباط الأحداث والوقائع بأسبابها التي تتكوّن شيئاً فشيئاً كما في الأحاديث التي أخبر فيها الرسول ﷺ بالأسباب التي تُنتج الانحلال والهلاك مثل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيِّرونه ، يوشك الله عزَّ وجلَّ أن يعمَّهم بعقابه »[1] . وقال ﷺ : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وإني : والذي نفسي بيده لوأن فاطمةَ بنتَ محمد سرقت لقطعتُ يدها »[2] .

---

(١) حسنه الترمذي وعند أبي داود ٤١٧١

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحدود .

وإنما يقع الناس في مثل هذا حين تضعف بصيرتهم في رؤية علاقة هذه النتائج بتلك الأسباب . وهذا ما يُنشئ الحالة التي وصفها الله تعالى في المثل الذي ضربه عن الرجل الكَلّ الذي لا يبصر مأتى الخير حيثما توجه ، لأنه يمرُّ بالأشياء أصمَّ أعمى ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمواتِ والأرض يَمُرُّونَ عَليها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف ١٢/١٠٥] . فالكَلالة جزاء الإعراض عن آيات الله في الأرض والسماء وما أنزل الله من كتاب ..

٤ ـ بيان الفعالية في مستوى العالم

يساهم في فعالية الفرد جانبان :

١ ـ جانب ما يبذله الفرد من جهد شخصي في جعل سلوكه متطابقاً مع مُثُل المجتمع الذي يعيش فيه ، ويكون ذلك بالضغط على نفسه في ترك رغائبه الشخصية التي لا تتلاءم مع مطالب المجتمع ، ويحمل نفسه على الاستجابة لرغائب المجتمع ومطالبه .

٢ ـ وجانب ما يبذله المجتمع من جهد في حمل الفرد على اتباع الْمَثَل الأعلى الذي قَبِله المجتمع ، ويُنشئ أفراده عليه بممارسة مختلف وسائل الضغط ، التي منها المادي كالعقوبات والغرامات ، ومنها

المعنوي كالاحتقار والنبذ والإشعار بالضَّعَة والهوان ، وبممارسة وسائل الترغيب ، المادية منها كالمكافآت المادية ، أو المعنوية : كالاحترام والتقدير اللذين يوليهما المجتمع للأفراد الذين يُضحُّون من أجل مُثُل المجتمع العليا . وعلى قدر حرص الفرد والمجتمع على أداء كل منهما واجبه يسهم ذلك في فعالية الفرد والمجتمع . كما أن التخلف عن أداء الواجب يؤدي إلى حالة الكَلالَة بالنسبة لمستويي الفرد والمجتمع .

فإذا فهمنا أثر المجتمع في الفعّالية والكَلالة يمكن أن نتوسع في فهم المجتمع وأثره إلى أن تبلغ مستوى العالمية . ففي العالم الحديث ، الذي صار الناس فيه يتحدث بعضهم إلى بعض بسرعة الضوء ، ويتزاورون فيه بسرعة الصوت ؛ أدّى كل ذلك إلى وضع جعل كثيراً من مشاكل العالم يَعُمُّ كل أفراد الجنس البشري ويحملهم على الاهتمام بمصير العالم كله . فإذا أدركنا هذه الحالة نستطيع أن نتصور فَهْمَ الفعّالية في مُستوى العالم ، وأن ندرك قسطاً كبيراً من السلبية واللافعالية متمثِّلة في العجز الذي تبديه المؤتمرات العالمية والمجتمعات الدولية حيث تظهر عجزاً كبيراً في حلّ مشاكل العالم .

ومن مزايا هذا العصر طرح المشاكل في المستوى العالمي . (وإن كان من أمراض هذا العصر ، العجز المريع في حلّ أي مشكلة منها) .

فإذا كنا نعترف بالتقدم الذي أحرزه العلم في رفع المشاكل إلى العالميـة ، فإننا نَدينُ سلبية العالم في حلّ هذه المشاكل وضعف تكيفه مع الأوضاع .

وحيث إن هـذا المـوضـوع بحث في فعـاليـة الإنسـان ، وبمـا أن اهتمامنا يتوجَّه إلى صلة المسلم بالفعالية ؛ فعلينـا أن نبين هـذه الصلـة . سبق أن بيَّنـا أن المجتمعـات تمرُّ بمراحل فعَّاليـة ومراحل كَـلالـة . وإنّ المسلم قد مرَّ بمثل هذه المراحل ، ففي مرحلة ما أدى دوره في الفعاليـة الخاصة به ؛ بما قدَّم للعالم من فعـاليـة في تلـك المرحلـة بصورة مبـاشرة أو غير مباشرة . وإننـا نضطر إلى أن نعترف بـأنـه لا يحمل في مرحلتـه التي يعيشها الآن فعالية في نفسه ولا يحمل فعالية للعـالم . وأقرب مثل لذلـك هو أنـه لا يظهر وجوده في المجتمع العـالمي الـذي يبحث مشـاكل العالم ، فضلاً عن أن يقـدِّم إسهـاماً في ذلـك ، فهو يعيش على هـامش الحياة . ونعيد مرة أخرى حين نَصِف لا فعَّاليـة المسلم أو كَلالتـه : إننـا لا نعني البتَّة في أن المبدأ الإسلامي هو الذي لا يكلِّف المسلم بـأداء دوره في الفعالية في العالم . إذ الإسلام يجعل المهمـة الأسـاسيـة للمسلمين ، أن يكونوا شهداء على النـاس ، فـأبسـط مـا يقتضي القيـام بهـذه المهمـة أن يَحْضروا ويفهموا أحداث العالم ، وأن يشهدوا عليها مبيِّنين ما هو منكر وما هو معروف . ولكن في المرحلة الراهنة لا يستمدّ المسلم الفعـاليـة من كتابه القرآن ، فَصِلته به كصلـةِ أهل الكتـاب بـالتوراة والإنجيل ، كما

بيّن ذلـك رسول الله ﷺ لـزيـاد بن لبيـد . وهـذا ممـا يجعلنـا نهتم في البحث عن الشروط التي تعيد الفعالية للمسلم ، وتجدّد صلتـه بكتـابـه ، وصلته بصياغة الأحداث ، حيث إن المسلم هو الـذي فَقَـدَ وظيفتـه التي تؤهِّلُه للتّمكُّن من صياغة مجتمع منسجم مع المبدأ القرآني .

الفصل الثاني

شروط الفعالية[☆]

قبل ذكر الشروط نذكر الحقائق :

١ ـ عرّفنا الفعّالية فيما سبق بأنها استخلاص أحسن النتائج من الوسائل المتاحة للإنسان ، وهذه الحالة نتيجة . والشروط : هي الأمور التي إذا توافرت لدى الإنسان ، حملته على أن يقوم بنشاط فكري وعملي ، أي تحمله على أن يستخدم عقله ، وهو وسيلة من وسائله في تأمُّل أحداث هذا الكون ، وهذا الكون وأحداثه وسيلة أخرى أمام عقله لاستخراج سننها ، والاستخدام الصحيح لهاتين الوسيلتين ، هو الذي يعطي الفعالية في النهاية . وهاتان الوسيلتان هما الآفاق (أحداث الكون) والأنفس (القوى الواعية في الإنسان) وهما المذكورتان في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت ٤١/٥٣] .

(☆) يمكن أن نفهم أن شروط الفعّالية هي شروط الثقافة والحضارة والنهضة .

٢ ـ من الحقائق الأولية ، التي تساعد على توجيه الإنسان ، تقريب المواضيع التي لم تخضع بَعْدُ سنن تسخيرها للإنسان ، بمقارنتها بأمثلة خضعت سنن تسخيرها للإنسان .

٣ ـ وبناء على ما سبق ، نريد أن نظهر حقيقة من الحقائق تتعلق بالإنسان ، فالإنسان في أصله أبدعه الله وسوّاه تسوية عجيبة ، قابلة للتزكية والتدسية ، وقابلة لأن يكون صاحبها في ﴿ أحسن تقويم ﴾ ، ولأن يَرْتدَّ إلى ﴿ أسفل سافلين ﴾ ، وقابلة لأن يكون ﴿ كَلاًّ ﴾ أينما توجّه لا يأتِ بخير ، أو أن يكون ﴿ آمراً بالعدل ﴾ وهو على صراط مستقيم . فهذا الاستعداد المزدوج ، وهذه القدرة المودَعة في الإنسان ، هي ما يسمّيه علماء الكلام (ما هو كائن بالقوة) ، فإذا تحوّل هذا الشيء إلى حقيقة واقعة ، فصار الإنسان على أحسن تقويم ، آمراً بالعدل ، ذا نفسٍ ارتفعت بالتزكية ، أو عكس ذلك ؛ فهذا ما يطلق عليه عندهم (ما هو حاصِل بالفعل) . ويضربون لذلك مثلاً فيقولون عن الإنسان قبل أن يتعلَّم القراءة والكتابة إنه كاتب وقارئ بالقوّة ، لأنَّ عنده استعداداً لأن يصير قارئاً وكاتباً بالتربية والتمرين . فإذا ما حوَّل المربِّي ما هو موجود عند الإنسان بالقوة إلى ما هو كائن بالفعل ، أي بأن جعلَه كاتباً وقارئاً ، يكون حوَّل القوة إلى الفعل .

فهذا الاستعداد بالقوة وتحويله إلى كائن بالفعل باستخدام الوسائل التربوية ، هو مما يقع تحت تجاربنا التي نعيشها بالنسبة للقراءة والكتابة . أما مقارنة الفعالية بالكتابة مع تشابه الموضوعين فلم يبلغ فَهْمُ مشابهتهما لبعضهما درجة وافية ، بل لا يزال محاطاً بالغموض والشكوك . ويرى أكثر المسلمين مرجعَ تكوين الفعالية إلى القضاء والقدر الذي لا يدخل فيه جهد الإنسان ، بينما يرون جعل الإنسان الفرد أو المجتمع قارئاً وكاتباً مما يدخل فيه جهد الإنسان .

٤ ـ وذلك لأنهم يرون القضاء والقدر في مستويين ؛ يرون القضاء والقدر في الأمور التي لا يعلم الناس سننها أكثر بروزاً من الأمور التي تمكّنوا من السيطرة على سننها . إلا أنّ تعلُّق القضاء والقدر في الأمور التي يعلم الناس سننها ، والتي لا يعلمون سننها سواء . فالاستعداد الموجود عند الإنسان لأن يصير قارئاً وكاتباً ، حين يتحول إلى قارئ وكاتب بالفعل ، لا يكون حدث ذلك خارج القضاء والقدر . وكذلك تحويل الاستعداد الموجود عند الإنسان لأن يصير كَلاًّ أو آمراً بالعدل لا يكون خارجاً عن القضاء والقدر ، بل هو مثل القراءة والكتابة ، ولكن السُّنن التي تجعل الإنسان كَلاًّ أو عَدْلاً لا تزال غامضة .

والمَثَل الذي ضربه عمر بن الخطاب لأبي عبيدة[1] ، كان يقصد به مقارنة أمر معروفةٍ سننه ، بأمر آخر لم تكن سننه واضحة الوضوح نفسه ، وذلك حين قارن عدم التعرُّض للوباء ، باعتباره قضاءً وقدراً ، برعي الجانب الخصب أو الجدب من الوادي ، حيث لا يشك أحد أنه يرعى في الخصب بينما لم يكن بالوضوح نفسه تدخُّل اختيار الإنسان في تجنُّب الوباء كاختياره الجانب الخصب ، ولا سيا في ذلك الوقت . ومن هنا تتميز دقة نظر عمر عن سائر الصحابة . وهذه الميزة هي تحوّل القدرة على معرفة الأشباه والنظائر المودعة بالقوة إلى واقع بالفعل . كما أدرك عمر الشّبه الموجود بين الرعي في الخصب وترك التعرُّض للوباء . وهذا ما كان كتبه عمر لأبي موسى الأشعري في وصيته القضائية المشهورة حين قال فيها : « قايسِ الأمور واعرف الأمثال ، ثم اعمدْ فيما ترى إلى أحبِّها إلى الله »[2] .

في هذا الموضوع قال الرسول ﷺ : « كُل شيء بقضاء وقَدَر حتى العجْز والكَيْس »[3] ، فهذا الحديث جعل الأحداث كلها بالقضاء والقدر وخصَّ بالذكر العجز والكيس حتى لا يظن ظانٌّ أن العجز والكيس لهما خصوصية معينة وإنما هما كسائر الأمور التي تحدث ضمن

(١) ذكر هذه الحادثة الإمام البخاري في كتاب الطِّب .

(٢) عن كتاب أعلام الموقعين ١/١

(٣) أخرجه الإمام مسلم ـ كتاب القدر ، الكيس : الخفَّة والتَّوقُّد [اللِّسان : كيس] .

البسنن ، والعجز والكيس تعبير آخر عن الكَلالة والعدالة الواردة في الآية .

٥ ـ ولزيادة الإيضاح ، ولتقريب المشابهة بين سنن تعليم القراءة والكتابة ، وسنن إعطاء الإنسان الفعالية ، علينا أن نستحضر الحالة التي كان عليها البشر قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة ، ولقد كان كشف سنن تعليم القراءة والكتابة في تلك الأزمنة أصعب من كشف سنن إعطاء الفعالية في زمننا هذا .

٦ ـ ولزيادة الإيضاح أيضاً علينا أن نتصور ، لو تُرِكَ تعليم القراءة والكتابة للأفراد كلٌّ بجهده الخاص ، دون أن يخصص المجتمع مؤسسات لذلك ، لكان إعطاء القدرة على الكتابة والقراءة صعباً . وإنما سهّل ذلك سيطرة الإنسان وتهيئة المؤسسات التي تعطي ذلك ، مما جعل تحصيل القراءة والكتابة أمراً عادياً سهلاً ، وكذلك الأمر بالنسبة للفعالية ، حين يسيطر الإنسان على سنن إعطائها للأفراد والمجتمع ضمن مؤسسات خاصة وتوجيهٍ عام . وإن كانت الفعالية لها مزاياها الخاصة ، إلا أن كل ذلك خاضع للسنن التي يمكن أن يسيطر عليها البشر كما هو مبسوط في الكتب التي تُعنى بهذه المواضيع ، والتي تُطبّق في مجموعاتٍ عظيمة من البشر في العالم المعاصر ، مع احتفاظنا بالملاحظة التي ذكرناها حين قارنّا الفعالية بالأمر بالعدل الوارد في

الآية كما سبق في صفحة (٨) .

٧ ـ ولزيادة الإيضاح كذلك ، نأتي بمقارنة أخرى أيضاً فيما يتعلق بتلقين اللُّغة للأطفال ، ففي كل مجتمع ، يتلقَّن الأبناء لغة الآباء حتى دون شعور بالحاجة إلى مؤسسات ، فكذلك يرث الأطفال نمط التفكير وأسلوب الحياة من فعالية أو كَلالة ، وإن كانت المؤسسات أيضاً تسهم في رفع مستوى ترقِّي اللُّغة ، إلا أنَّ جانب المقارنة هنا ، هو القدرة العجيبة التي تصاحِب تلقين اللغة ، حتَّى في اللهجة المعينة الخاصة لكل منطقة معَ وحدة اللُّغة . فكما يمتصُّ الناشئ اللُّغة واللهجة المعينة بحيث يستطيع السامع أن يميز الفوارق بواسطة اللهجات ، وكما لكل فرد صوته الخاص مع خضوعه للَّهجة المحلية وخضوعه للغة العاميَّة . فكذلك يمكن ملاحظة ذلك بالنسبة لتوريث الفعالية وأنماط التفكير . فكما يتلقن الطفل اللغة الخاصة بمجتمعه مع اللهجة ، كذلك يتلقى الفعالية وأنماط التفكير سلباً أو إيجاباً ، مع إمكانية رفع مستوى ذلك بإضافة ميزات المؤسسات . فكما يرث اللغة والفعالية وأنماط التفكير ، كذلك يرث الدِّين أيضاً كما قال رسول الله ﷺ عن المولود : « ما مِنْ مولودٍ إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانِه وينصِّرانِه ويمجِّسانِه »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر .

ولا يخطرنّ في بال أحد ، أن فهم الموضوع بهذا الشكل يُثْبت إبطال جهد الإنسان في بناء الفرد كما سيأتي بيان ذلك .

٨ ـ نظرنا إلى الفعّالية من جوانب فيما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع والعالم . ولكن يمكن أن يُنظر إلى الفعالية من ناحيتين أخريين : ناحية الزمان ، وناحية المكان ، أي ناحية التاريخ ، وناحية الجغرافيا ، أي أنْ ينظر في العالم كله إلى الأزمنة التي ارتفعت فيها الفعالية إلى أقصى حدودها ، وكذلك النظر إلى الأماكن التي برزت فيها الفعالية . والذين يبحثون فلسفة التاريخ ، بحثوا الموضوع من هذين الجانبين ، ومع اختلاف نظراتهم وتفسيراتهم ، لم يختلفوا في أن الفعالية في حركة الإنسان لها سببٌ أيضاً ، وأوّل من نظر إلى هذا البحث على أساس موضوعي ، هو ابن خلدون إذ لم يشك في أن أحداث التاريخ لها أسباب ، يمكن أن يلاحظها الإنسان ويؤثر فيها . ومن التفسيرات التي أتى بها المؤرّخون :

١ً ـ من قال إن الجنس هو السبب ، أي إن الحركة التاريخية إنما يقوم بها جنس معين ممتاز عن سائر البشر .

٢ً ـ من قال إن العوامل الجغرافية هي التي تسبب حركة التاريخ .

٣ ـ ومن قال إن وسائل الإنتاج هي التي تسبب حركة التاريخ .

وهذه نظرات خفَّ الافتتان بها . ونقضها توينبي بتوسُّع وأتى بنظرية (التَّحدّي) . إلا أن مالك بن نبي الجزائري بحث في كتبه هذا الموضوع بشكل ردَّ فيه الباعث على الحركة في المجتمعات إلى الشعور (بالخطر الأخروي) وذلك من خلال تتبع الحضارات الباقية على الأرض .

٩ ـ ونختم مقدمة شروط الفعالية ، بقاعدة لطريقة معرفة الحكم على قيمة فعالية أمّة ما ، أو قيمة ثقافة أمة ما ، أو قيمة حضارة أمة ما ، وذلك بالنظر إلى جانبين :

١ ـ الْمُثُل العليا ، ومقدار موافقة هذه المثل لما يَليق بالإنسان .

٢ ـ مقدار التطبيق الذي يمارسه الفرد والمجتمع ليتوافق سلوكه مع تلك الْمُثُل .

وفي المصطلح الإسلامي يطلَق على الأول الواجبات والمحرمات المنبعثة عن المثل الأعلى ﴿ ولله الْمَثَلُ الأعْلَى وهُوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ [النَّحل ١٦/٦٠] .

ويطلق على الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي الأمر بالواجبات ، والنهي عن المحرَّمات بمختلف الوسائل .

ولا يمكن لأي مجتمع ، أن يعيش بغير مُثُل عليا سواء كان مصدرها من الخالق أو المخلوق . وتفاوت المجتمعات يكون على قدر ما في مُثُلها من صواب ، وعلى قدر ما تبذل من جهود لتحقيق ذلك .

ولعلاقة المثل الأعلى بالتطبيق أربعة أوجه :

١ ـ مثل أعلى صحيح + طريقة صحيحة لبناء الإنسان وفق المثل الأعلى = حياة صحيحة راقية ربّانية ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النّحل ٩٧/١٦] .

٢ ـ مثل أعلى صحيح + طريقة خاطئة للبناء = تخلُّف وتناقض وعجز ، كما هو حال العالم الإسلامي الآن .

٣ ـ مثل أعلى خاطئ + طريقة صحيحة للبناء ، ولو باعتبار ما = حضارة مثل الحضارة الحديثة ؛ عنصريَّة ، حروب إبادة ، تسخير الأشياء لغير صالح الإنسانية .

٤ ـ مثل أعلى خاطئ + طريقة خاطئة = لا دنيا ولا آخرة . ﴿ خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَة ﴾ [الحج ١١/٢٢] .

مع ملاحظة أن الخطأ والصواب في المثل الأعلى وفي التطبيق ، يتفاوتان تفاوتاً كلّيّاً أو جزئيّاً في مقدار الخطأ والصواب .

ولابن تيمية كلام دقيق في هذا الموضوع (المثل الأعلى والتطبيق) ذكره في كتاب الحسبة في الإسلام قال فيه :

« وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لافي الدنيا ولا في الآخرة إلا باجتماع ... على أمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، وأمور يفعلونها ويُطيعون للآمِر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد ..

فبنو آدم لا بد لهم من طاعة آمرٍ وناهٍ ، فمن لم يكن من أهل الكتاب والدّين ، فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود عليهم بمصالح دنياهم مصيبين تارة ، ومخطئين تارة أخرى .

وأهل الكتاب متفقون على الجزاء بعد الموت ولكن جزاء الدنيا متفق عليه من أهل الأرض ؛ لا يتنازعون أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ، ولهذا يروى (الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة) .. » .

وكلام ابن تيمية هذا في مستوى رفيع جداً في علم الاجتماع وفقهه . وفهم الحضارة والثقافة والنهضة على هذه الاعتبارات السابقة توضّح أسس النجاح في الدنيا منفصلة ـ ولو باعتبار ما ـ عن الآخرة ،

كما توضح أسس النجاح في الدنيـا والآخرة معـاً . ولكل من المثل الأعلى والتطبيق شروط فمن حققها نجح ، ومن لم يحققها أخفق ﴿ ومَـا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ ﴾ [النّحل ٣٣/١٦] .

١٠ ـ وقاعدة أخرى يقررها القرآن ولها أهميتها الخاصة : وهي أن الكـون مسخر للإنسـان بشرط أن يعرف سننـه . والإيمان وحـده بواضع السُّنن لا يؤدي إلى التسخير ، مع تذكُّر أن الاستمتاع بهذا التسخير لا يتم إلا بالإيمان ﴿ بَلِ الّذِينَ لاَ يؤمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ ﴾ [سبأ ٨/٣٤] . وشرط التسخير مقرر في سورة الإسراء بـأن من يريد العاجلة فقط (النجاح في الدنيا) يعجّل الله له مـا يشـاء حسب اتّباعه لسنن الكون ، وكذلك من أراد الآخرة وسعى لهـا سعيهـا (على سُنَنِهـا) كان سعيـه مشكوراً . ثم يقـول تعـالى : ﴿ كُـلاًّ نُمِـدُّ هـؤلاء وَهَـؤلاء مِنْ عَطَـاء رَبِّـكَ وَمَـا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّـكَ مَحْظُـوراً ﴾ [الإسراء ٢٠/١٧] .

ولإلقـاء أضـواء على بعض الأفكار الهـامـة التي تسهم في إعطـاء الفعّالية للإنسان نَذْكُر بعضاً منها على سبيل المثال :

١ - نظريّتا التّاريخ

يُقصد بالتاريخ : الأحداث التي وقعت في شتى أنحاء العالم ، منذ أن بدأ الإنسان يترك أثراً على الأرض . إلا أن هذا المعنى تطور إلى أن ضَمَّ إلى جانب هذا المعنى معنى آخر ، وهو بحثُ أسبابِ الأحداث . وربما قُصد به المعنى الأخير بمفرده . ولقد مرَّ زمن لم يكن الناس يفطنون فيه إلى أن أحداث التاريخ تخضع لتوجيه الإنسان ، بل كانوا يرون أن هذه الأحداث لا دخل للبشر في حدوثها ، وإنما يسيّرها مسيّر السّموات والأرض . وهذه هي النظرية الأولى في التاريخ ، وهي النظرية القدريّة التي لا ترى أثراً لجهد البشر في صنع التاريخ .

ولكن استخدام القوى الواعية للبشر في تأمُّل أحداث الكون ، أبرزَ شيئاً فشيئاً إمكانية تدخُّل جهد البشر في صنع الأحداث وتسريعها أو إيقافها ، بعد أن عرفوا أسبابها . وكان إدراك البشر لهذا الجانب بطيئاً ، ولم يتوضح مرة واحدة ، ولم ينتشر سريعاً بين الناس ، كما لا يزال معظم البشر ينظرون إليه بشيء من الغموض وعدم الوضوح .

ومن القواعد المقررة التي يمكن أن يلاحظها كل واحد : أنه إذا أردت إبطال جهد الإنسان وإيقافه عن أي عمل ، ما عليك إلا أن تقنعه بعدم جدوى هذا العمل ، فبمجرد أن يقتنع الإنسان بعدم جدوى

عمله يكُفُ عن النشاط ويتوقّف عن العمل . فمن هنا يمكن أن ندرك أهمية الأخذ بإحدى النظريتين السابقتين في إعطاء الفعالية والحركة للإنسان . واليوم حين نسمع في مجتمعنا من يقول لمن يعمل للإسلام : إن هذا الجهد ضائع ، فكأنما يريد أن يوقف العمل للإسلام . وكل الذين يقعدون الآن عن العمل ، إنما يقعدون معتمدين على مثل هذا الرأي في عدم جدوى العمل ، وهذا الذي أوقف صنع التاريخ الإسلامية . وهنا يمكن أنْ نتساءل ماذا يقول لنا القرآن في هذا الموضوع وبأي النظريتين يأخذ ؟ حين نلقي هذا السؤال ، ماذا يخطر في بال المسلم أن يكون عليه القرآن ؟ وينبغي أن يكون هذا الموضوع من الوضوح بحيث لا تبقى حاجة لطرح مثل هذه الأسئلة . إلا أنّ صِلتنا الحالية بالقرآن التي تشبه صلة أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل والتي أشار إليها الرسول ﷺ في حديث زياد بن لبيد ، هي التي تجعل الحاجة ماسّة إلى طرح مثل هذه الأسئلة .

والقرآن تشغل منه قصص الأمم السابقة ، جانباً عظيماً موضحاً فيها أسباب هلاك الأمم ودمارها ، وأنّ ذلك كان لترك الاعتبار بالأحداث ، وأنهم لم يجتنبوا أسباب الهلاك والدمار . وإلحاح القرآن في هذا الجانب ليس له نظير في أي كتاب علمي في الحثّ على الأخذ بنظرية تدخل جهد الإنسان في إمكان توجيه أحداث التاريخ .

ولكن هذا الجانب في القرآن ، جانب تدخُّل جهد الإنسان في أحداث التاريخ صار مهملاً عند المسلمين كسائر الآيات التي قال الله عنها : ﴿ وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ فِي السَّموات والأرضِ يَمُرُّونَ عَلَيها وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف ١٠٥/١٢] . وهكذا قال عن آيات القرآن : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أقفالُها ﴾ [محمد ٢٤/٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد يَسَّرنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر ﴾ [القمر : ١٧/٥٤] . وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ ﴾ [ص ٢٩/٣٨] . ويقول الله : (أهلكناهُم ، بما ظلموا ، بِبَغْيِهِم ، بكُفرِهِم ، بما كانوا يفسقون ، بما كانوا يظلمون ، بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . قد خَلَتْ مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبين . هذا بيانٌ للنَّاس وهدًى وموعظةٌ للمتَّقين)[1] ، ولا معنى للأمر بالسير في الأرض ، والنظر في عاقبة المكذبين ، إن لم يكن في قدرة البشر اجتناب أسباب هلاكهم ، فهذا معنى تدخُّل جهد البشر في صنع أحداث التاريخ ، وذلك بالتزامهم لسُنن معينة وتركهم لأعمال خاصة .

وكذلك يقول الله : (لعلَّكُم تتفكَّرون ، لعلَّكُم تعقِلون ، لعلَّكُم تتَّقون)[2] ، ويقول : (أفلا تسمعون ، أفلا تُبصرون ، أفلا تعقلون)[3]

(١ ـ ٢ ـ ٣) كلمات من آيات مختلفة .

كل هـذه الآيـات تقرِّر أهميـة وأولـويّـة جهـد البشر في سير أحـداث التاريخ . بل القاعدة العظيمة في منطلق تغيير أحداث العالم متضَّنة في قولـه تعـالى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يُغيِّر مـابقـومٍ حتَّى يغيِّروا مـا بـأنفسِهم ﴾ [الرَّعد ١٣/١١] . فهـذه الآيـة جعلت تغييرات أحـداث العـالم مرتبطـة بما في أنفس النـاس ، وأن النـاس هم الـذين يغيِّرون مـا بـالأنفس[١] ، كما هو نص القرآن ﴿ حتَّى يغيِّروا ما بأنفُسِهم ﴾ .

ولسنا في حاجة للإكثار من الآيات في هـذا الموضوع ، فـالقصـة والتوجيهات في القرآن ، متضمِّنة هذا المعنى .

ولكن قـد تشتبـه على من يقرأ القرآن ، نقطـة أسـاسيـة لأن الله يتحدث أحيـانـاً عن حتميَّة هلاك أقوام أو ضلالهم ، وعـدم إمكان رفع الهلاك والضـلال عنهم كما قـال : ﴿ وَمَنْ يُضْلِـلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ وَلِيّـاً مُرشِداً ﴾ [الكهف ١٨/١٧] . وهذا مُستَنِد إلى الأسبـاب التي تراكمت حتى صـار الهلاك ، وحصول نتيجـة هـذه الأسبـاب حتماً مثـل الضغـط على الزناد حيث يفلت من يد الإنسان التحكُّم بالقذيفـة بعـد الضغـط على الزِّناد . ولكن ليس معنى هـذا أنـه لم يكن لـه اختيـار في الضغـط على الـزنـاد . فمن هـذا الجـانب ، يمكن أن يُنظر إلى التـاريـخ على أسـاس

(١) راجع كتابنا (حتَّى يغيِّروا مابأنفسهم) .

حتمي وقدري وهذا النظر يُغفِل تدخُّل جهد الإنسان في إحداث هذه النتائج الحتمية .

والخلاصة : أن صنع الأسباب يكون بالاختيار لا بالحتم . ولكن حدوث النتائج حتم . فبهذا الشكل صار الإنسان مسيطراً على الحتم ، كما أن الإنسان يَغْفُل عن سنن الله ، فإن سنن الله لا تغفل أن تأخذ طريقها دون شعور من الإنسان الغافل . وحينئذٍ لن يتمكَّن الإنسان أن يرى للتاريخ أسباباً ، وإنما يرى أحداثاً حتميَّة ، لا دخل لجهد الإنسان فيها . فمن هذه النظرة تنشأ القدريَّة .

ويتبين مما قدمنا أن القرآن يؤكد تدخل جهد البشر في صناعة أحداث التاريخ . وبمقدار وضوح هذه الحقيقة في آيات القرآن فإنها غامضة بالنسبة للمسلمين . وهذا الغموض هو الذي حمل الأستاذ سيد قطب ، رحمه الله ، وقد جهد واجتهد في بحث مشكلات المسلمين ، على أن يخصص مؤلَّفاً لهذا الموضوع ، وهو كتاب (هذا الدين) في تحديد صلة الإنسان بالواقع التاريخي :

« هناك حقيقة أوَّلية عن طبيعة هذا الدِّين وطريقة عمله في حياة البشر ؛ حقيقة أوَّلية بسيطة ، مع بساطتها كثيراً ما تنسى ، أو لا تدرك ابتداء . فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في

النظر إلى هذا الدين ؛ حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك .

إن البعض ينتظر من هذا الدين مادام منزلاً من عند الله ، أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموّهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لا يرون أنّه يعمل بهذه الطّريقة ، وحين يرون أن الطّاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية ، يتفاعلان معه فيتأثران به ـ في فترات ـ تأثّراً واضحاً ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه ... وحين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقّعونها ، أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني وواقعيته ، أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً .

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلّها من خطأ واحد أساسي : هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته أو نسيان هذه الحقيقة البسيطة الأولية » .

وقال في مكان آخر مبيّناً أهمية هذه الحقيقة :

« والمعرفة بهذه الحقيقة ذات أهمية قصوى فهي تعطي البشرية

أملاً قوياً ... فهي صورة من شأنها أن تزيد من ثقة البشرية بنفسها ... أن تبلغ ذلك المستوى الإنساني الرفيع الذي بلغته مرة في تاريخها فهي لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر ، وإنما بلغَتْه في ظلّ منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية »[1] .

ولما خفيت هذه الحقيقة ، وهي (دور الإنسان في صناعة التاريخ) في رسالات السماء كما سبق أن ذكره ذلك الكاتب بمرارة وأسى . فعند عدم إدراك هذه الحقيقة البسيطة الأولية أو نسيانها عند من يؤمنون برسالات السماء ، ضلّ من ضلّ لأنه مع تقدم العلوم ظهرت هذه الحقيقة ـ حقيقة (تدخُّل الجهد البشري في صناعة التاريخ) ـ لقوم حدث لهم ردٌّ فعل نفوري من المتديّنين ، فكتبوا في هذا الموضوع وكأنهم كشفوا شيئاً جديداً امتازوا به عن سائر الخلق وسمُّوا هذه النظرية بأسماء مختلفة كالفلسفة الوضعية ، والمادية الجدلية ، والمادية التاريخية ، والديالكتيكية .

كما هاجموا المتديّنين ورسالات السماء وكل النظم المثالية ، واعتبروها معطّلة لأثر جهد الإنسان في أحداث التاريخ . ولقد أبدؤوا

---

(١) سيد قطب ، هذا الدين ، ص : ٣ـ٤

في هذا وأعادوا كثيراً . وعظمت البليّة بذلك ، فظن كثير من الناس الذين لم يدركوا هذه الحقيقة في طبيعة الدّين أو نسوها ، أن العلم والوعي وتقدير جهد الإنسان ومكانته في صنع الأحداث ، كل ذلك مخصوص بأولئك الذين نظروا إلى التاريخ النظرة المادية .

وفهم أحداث التاريخ بهذا الشكل الذي يتدخّل فيه جهد البشر ، يسهم مساهمة كبيرة في إيجاد شرط أساسي من شروط الفعالية ؛ وذلك لأن هذه النظرة لا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب ، بل تتدخل في تكييف سلوك الإنسان أمام الأحداث وتضع الإنسان في المكان المناسب له في هذا الكون ، وتشعره بكرامته حيث سخر الله له هذا الكون .

ويقول جلال الدّين الرومي في هذا المقام مخاطباً الإنسان : « إن خدمتك مفروضة على جميع الكائنات . هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالب ويُمنّي نفسه بشرائه : يا مَنْ مِنْ عبيده العقل والحكمة والمقدرة لا محلّ للمساومة فقد تمت الصفقة : ﴿ إنّ اللّهَ اشتَرَى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُم ﴾ [التّوبة ١١١/٩] ، فإن الشيء لا يباع مرتين » .

٢ ـ المسوّغ

إنَّ مِنْ شروط الفعّالية حدوثَ شعور للإنسان أنه يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين ، وهم بحاجة إليه . فحدوث هذا الشعور عنده يكون سبباً لفعاليته ونشاطه . ويمكن أن يتضح ذلك إذا نظرنا إلى العكس : وهو أن الإنسان إذا لم يكن عنده شيء يقدمه للآخرين ، أو على الأقل يُشعره بإسهامه معهم ، يصيبه الانطواء والخمول ، بل قد يبلغ به الأمر إلى درجة أن يفقد كل مسوِّغ لوجوده مما يؤدي إلى الانتحار أحياناً . ويمكن أن يلاحظَ ذلك في أدقّ الأعمال وأيسرها . وكما ذكرنا سابقاً يلاحظ في الإنسان الذي يحسن شيئاً يحتاج إليه الآخرون حيث يُشعره ذلك بقيمته ، ويجعله فعالاً في بيانه وتطبيقه . هذا في المستوى الفردي والعمل البسيط ، ويمكن أن يرى ذلك في مستوى المجتمعات والحضارات الكبرى . فإن المسلمين حين انطلقوا بأقصى توتر في الفعالية شهده العالم كانوا يشعرون بأن الله ابتعثهم ليقدموا للعالم حقيقة هذا الدين الذي يكرم الإنسان ويخرجه من ذلّ العبودية . فكان أصغر جندي في عسكرهم يشعر بهذه المهمة حين كان يقول معبراً عن مهمته بأنه مستنفر لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد .

بينما المسلم الآن لا يدرك أنه يملك شيئاً يقدّمه للعالم ، أو العالم بحاجة إليه ، ولن يتأتّى للمسلم هذا الشعور إلا إذا عرف جيداً مشكلات العالم وما يعانيه ، وحقيقة ما يمكن أن يقدّمه الإسلام لهذا العالم .

وحتى العالم الغربي لم تحدث لديه الفعالية ، إلا بعد أن شعر أنه موضع عناية القدر ، وأنه يملك ما لا يملكه أحد من الناس من العلم والفهم للحياة .

والمسلمون إزاء هذا ينقسمون إلى قسمين في هذا الزمان : قسمٌ أصابه اليأس من أن يوجد في الإسلام شيء يمكن أن يكون العالم في حاجة إليه ؛ فهو مُعرِض عن الإسلام ومتطلّع إلى غيره ليسترفد منه ما يكمّل به نفسه . وقسم آخر اعتاد أن يحفظ كلمات في مدح الإسلام ، وأن ينسب إليه كل الصفات الجيدة ، دون أن يتمكن من أن يحلَّ بواسطة هذا الإسلام الذي يمدحه مشكلاته البيتية فضلاً عن أن يرتفع إلى مستوى حلِّ المشكلات العالمية . بل ينعكس عجزه الداخلي بصورة أكبر في المستوى العالمي ، وهذا دليل أنَّ ما يغدقه للإسلام من مدائح إنما هو تعويض سيئ عن عجزه في أن يحوّل مبادئ الإسلام إلى حقائق واقعية .

فإذا ما تحقق الإنسان من أهمية جهده في صنع أحداث التاريخ ، وأدرك في جانب ذلك ، أنه يملك الشيء الذي يفتقده العالم للتغلُّب على مشكلاته ، أصبح قادراً على أن يكون آمراً بالعدل ، وشعوره هذا شرط أساسي لذلك . فإن من لا يفهم أنه يملك أفكاراً عادلة وأعمالاً صالحة ، يمكن أن يخرج بها الناس من الظلم والظلمات ، لا يمكن أن يكون آمراً بالعدل . ولهذا كانت مهمة الرسالات (إخراج الناس من الظُّلمات إلى النور) .

وينبغي أن لا يفوتنا الفارق بين أن يكون العدل مسجلاً في الكتاب ، وبين أن يصير الإنسان قادراً على إخراج الناس من الظُّلمات إلى النور وهذا ما حذَّر منه الرسول ﷺ في حديث زياد بنِ لبيد إذ إن صيرورة الأمة إلى عدم انتفاعها بشيء مما في كتابها ، خاضعة لسنَّة ويمكن لجهد البشر أن يتدخل فيها .

فإذا توفر إدراك أثر جهد الإنسان والمسوّغ لأمة من الأمم ، يكون ذلك سبباً في ارتفاع درجة الفعَّالية التي تشيع في جميع أفراد الأمة من صغيرها إلى كبيرها ، ومن رجالها إلى نسائها ، فإنَّ هذه المفاهيم كالغيث إبَّان الربيع ، يسهم في تحريك النباتات والبراعم في كل مكان .

٣ - ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾

من الحقائق الثَّابتة أنَّ الإنسان في حركته ، يسعى لخير يجلبه أو لشر يدفعه . وكلٌّ منهما في درجات متفاوتة : فقد يكون الخير الذي يطلبه أكلة يصيبها ، أو نصراً كبيراً يحرزه في معركة حاسمة ، أو جَنَّـةً ﴿ عَرْضُهـا السَّماواتُ والأرضُ أُعِـدَّت للمتَّقينَ ﴾ [آل عمران ١٣٣/٣] ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أُذنٌ سمعت . وقد يكون الشر الذي يحذر منه أكلة تفوته أو معركة كبرى يخسرها أو ﴿ ناراً وَقُوْدُها النَّاسُ والحِجارَةُ ﴾ [التَّحريم ٦/٦٦] .

وفعّالية الإنسان وتوتُّره ، يكونان في أقصى مداهما كلَّما كان يقينه صادقاً فيما يطلبه ، وكلما كان ما يطلبه عزيزاً ، وما يهرب منه شرّاً كبيراً ، وهذا ينطبق على كل عمل يقوم به الإنسان من العناية التي يبذلها الطالب في أداء وظيفته المدرسية ، إلى المصابرة والمرابطة في القتال . ولهذا لَّما سوّى الله بين الناس في الرغائب التي يطلبونها والمخاوف التي يهربون منها ميَّز المؤمنين بأن رغائبهم ومخاوفهم تتعلَّق بأشياء لا يملكها غير المؤمنين . فقال تعالى : ﴿ إنْ تَكُونوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهم يَـأْلَمُـونَ كَمَـا تـأْلَمُـونَ ، وتَرْجُـونَ مِنَ اللهِ مَـا لا يَرْجُـونَ ﴾ [النِّساء ١٠٤/٤] .

ولا بد من التوازن الصحيح بين الخوف والرجاء ، لأن كلاً منهما إن زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه فتتحول شدة الخوف إلى اليأس ، كما تتحوّل غَلَبة الرجاء إلى الأمن والغرور . وكل منهما يبطل الفعّالية ويهبط من مستوى التوتر . وكل منهما مذموم في القرآن أشد الذّم ﴿ إنَّهُ لا يَيْأَس مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافرونَ ﴾ [يوسف ٨٧/١٢] ، ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف ٩٩/٧] .

وإذا نظرنا إلى المسلمين بهذا المنظار نجدهم على طرفي نقيض :

فإما أن تجد الذي بلغ به اليأس إلى حدٍّ لا يخطر له رجاء في عودة الحياة الإسلامية بجهد الناس .

وإما أن تجد الذي بلغ به الأمن والطُّمأنينة في أن المسلمين ليسوا محاطين بشيء من الأخطار ولا أن أبناءهم انصرفوا عن دينهم .. فهو يكرر القول الشائع بأن (أمَّة محمد بخير) دون أن يدرك معنى لما يقول . وهذان الصنفان من الناس ، هما الشائعان وقلَّ أن تجد الإنسان الذي يشعر بالخطر الحقيقي ، ويدرك الأمل الصحيح في النجاح . فهذا التوازن نادر في المسلمين ، وهذا ما يجعل المسلمين لا فعّالية عندهم لأنَّ منهم من لا يشعر بالخطر ، ومنهم من بلغ به الشعور بالخطر إلى درجة اليأس بحيث يظن أنه لم تعد هنالك فائدة من الحركة ، كما

لا يشعرون بـالفرص التي تفـوتهم وهم قـابعـون ينظرون إلى الأحــداث بعيون التماسيح الغافية ، كأنَّ الأحداث لا تعنيهم ، وكأن إرادتهم لا صلـة لها بتوجيه الأحداث .

وعلى هذا فكل جهد يبذله الفرد والمجتمع لتنبيه النـاس إلى الخطر المحدِق بهم ، وإلى العمل الـذي يمكنهم بـه أن يـدفعوا عن أنفسهم هـذا الخطر ، ويحققوا به أملهم ، يكون إسهاماً فعَّـالاً في إيقـاظ روح العمل والحركة في الفرد والأمة . ويفيدنا أن نعرف ، أن قيمة العـالم الإسلامي الآن في الزيادة والنقصان : متكوِّنة من اللَّحظات التي يبـذل فيهـا كل فرد مسلم جهده الواعي في سعيه إلى ابتغاء رضوان الله رغباً ورَهباً .

ومن طبيعة الحياة أن يتغلب الحق على الباطل فإذا فهم الإنسان هذا فلا يمكن أن يحول أحـد بينـه وبين أن يؤدي مـا يخصُّـه من واجب إحقاق الحق . ولا يشترط أن يصل الفرد إلى إحقاق الحق كلِّـه بمفرده ، ولكن مـع ذلـك لن يتمكَّن أحـد من أن يمنعـه أن يـؤدي واجبـه الـذي يخصـه ، فهو إن لم يستطع أن يعيش على الحق فلن يستطيـع أحـد أن يسلبـه حريَّـة الاختيـار في الموت على الحـق ، فيظـل الفرد إلى نهـايـة حياته يملك فرصة أن لا تفوته الحياة إلا وقد أدَّى واجبـه . وكلمـا ازداد وعي الفرد واستخدم طاقتـه الخـاصـة في فهم الحقـائق ، كلَّما أمكنـه أن يرفع من مستوى مشاركته في إحقاق الحق .

٤ ـ أداء الواجبات

ومن هنا يتبين لنا أن كل لحظة يبذل فيها الفرد المسلم واجبه فإنه يسهم في بناء الحياة الإسلامية . كما أن الذّل الذي يعيشه العالم الإسلامي متكون من أجزاء الهوان الذي يحمله كل شخص من المسلمين ومن الجهد اليومي والآني الذي يتخلف فيه المسلم عن أداء واجبه . سواء كان في القيام بالواجب إزاء نفسه أو مساعدته الآخرين في أن يرتفعوا بأنفسهم . ولقد أحسن في التعبير عن هذا المعنى مالك بن نبي الجزائري حين قال :

« إن صنع التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى الكلمة ، والواجبات الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل لحظة ، لا في معناها المعقد كما يعقّده أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة ، يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون المعجزات والساعات الخطيرة »[١] .

---

(١) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٥ ، ١٩٨٦ م .

وهذا ما ينبهنا الله تعالى إليه في قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ وَما تَتْلُو منهُ مِنْ قُرآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيكُم شُهُوداً إذْ تُفيضُونَ فيهِ . وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثقالِ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماء ولا أصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أكبَرَ إلاَّ في كِتابٍ مُبينٍ ﴾ [يونس ١٠/٦١] .



خاتمة

هذه الأفكار التي سجلتها هنا ، تكوّنت لديَّ أثناء حياة موجهة مليئة بالخبرات والبحوث ، عشتها مع أخي فسجّلتها لاعتقادي أنَّ هذه الأفكار تُفيد وتسهم في إنارة الطريق لمستقبل الحركة الإسلامية .

وهنا أقدم شكري وتقديري لأخي ، وأقدّم هذه الخبرة التي عشتها وتأثّرت بها ، وكانت سبباً في تكيُّف حياتي ، وأختار جانباً واحداً من هذه النواحي التي أشعر أنها أثَّرت في نفسي ، لما أرى له من الأهمية ، وهو الموقف الذي اتخذه أخي بالنسبة لي . والأمل الذي كان يعلّقه عليّ في أن أكون مسلمة فعّالة . وكان يتخذ لهذا الهدف الذي وضعه في نفسه فيما يتعلق بي وسائل كثيرة وإيحاءات مختلفة أقدّرها كل التقدير . إنه كان حين يفكر في عمله ودعوته كان أول ما يرسم وأول ما يخطط هو دوري ومهمتي في هذه الأعمال وما علي أن أحققه : إنه كان ينظر إليّ كأني الشطر الثاني من عمله وهذا ما جعله يصبر سنين عدة يعمل ليهيئ ما يؤهلني لتلك المهمة .

وأعتبر هذا الأمل الذي كان في نفسه ، هو نسمة الحياة الأولى التي تنعش كياني ، حيث لم تكن تهبُّ مثل هذه النسمة فيما أعلم في مجتمعنا على نظيراتي ، وهذه مشكلة أساسية في مجتمعنا . فمن المعلوم أنَّ هناك إسهاماً كبيراً في منجزات الفرد من جرّاء ما يتوقَّع الآخرون من هذا الفرد أن ينجزه . فإن هذا الأمل الذي يعلق عليه يكون أكبر عامل ومسهم في تحقيق ذلك . وكم من إمكاناتٍ تظل خامدة ميتة حيث لا يعلق أحد عليها أملاً ولا توقعاً فتظل مطمورة في عالم الغيب لا يمر عليها من يقدرها . وليس من السهولة أن تنمو البذور إذا لم يحط بها الدفء وماء الحياة بل أعتقد أن سبب هذه العطالة أو الكلالة (الضعف) التي يعيشها مجتمعنا والتي تبرز كأوضح ما يكون في جانب النساء هو : (الجو الثقافي) الذي يحدد مهمة النساء في حدود معينة بحيث لا يتوقع الأخ أو الأب أو الزوج منها غير تلك المهمة المعينة المحدودة . وأن لا يخطر في بالها هي غير ذلك فكأن وظائفها كلها حصرت واختزلت في إمكانية محددة ، وهذه المهمة المعينة يمكن أن نوجزها في كلمة واحدة هي : (مهمة المحافظة على بقاء النوع لا ترقية النوع) .

وأرى من الضروري ، حتى تعطي هذه الملاحظة ثمرتها ، أن أفرق بين أمرين ، حيث إن كثيراً من المسلمين يخلطون بينهما . فحين

أقول : إن العطالة تحيط بمجتمعنا ولا سيما في جانبه النسائي ، لاأقول : إن الإسلام هو الذي يعطي هذه العطالة أو يسببها . ولكن لاأخشى من صاحب رأي لـه اعتبار أن ينقض رأيي في أن المسلمين هم الـذين يقومـون بهـذه العطـالـة بشعـور منهم أو دون شعـور على مختلف مستوياتهم ، ومن رأى غلوّاً في كلامي هذا وبخساً لحق المسلمين فإنما هو يعبر بذلك عما في نفسه مما يأمله في أن يكون عليه المسلمون في نظره ، لا ما عليه المسلمون في الواقع .

هذا وإن كنت أشرت إلى جوانب نقص في المسلمين ، فإن ما في المسلمين ليس هذا فقط ، بل إن هذا الجانب من النقص بدأ يـدخل في حيّز الشعور فصار ذلك باعثاً لأن يراجع بعضهم مواقفه فيتأملها . وهـذه أول خطـوة في تغيير الإنسـان لنظرتـه وسلوكـه . والآن نرى تباشير ذلك في براعم آخذة في النمو والتفتح مما يـدل على سريان حيـاة جديدة . ونرى أيضاً نسمـة الحيـاة في الأمل الـذي نعلقـه على ناشئتنـا المتطلعـة إلى حيـاة أكرم لتضع لنفسهـا أهـدافـاً أسمى وتطلعـات أقـوم متخلصـة من أوزار الانحطـاط ومتـأكـدة من ثبـات خطـواتهـا في المستقبل .

ولتحقيق هذا المستقبل لا بد من عقبات تبلغ بالقلوب الحناجر ،

ولكن الذي يثبت المسلم على ذلك آيات الكتاب الكريم والوعد الحق الذي يدعم المؤمنين والمؤمنات ويبارك سعيهم .

﴿ فاستجابَ لَهُمْ رَبُّهم أنّي لاأُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثى .. ﴾ [آل عمران ١٩٥/٣] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

ليلى سعيد